النشاط الثقافي في الوطن العربي

من مراسلي الآداب

ج.م.ع.

رسالة القاهرة من سامي خشبة

● مرة اخرى عن الفلسفة العلمية والبحث عن حقيقة التاريخ العربي :

حينما كتبت رسالة القاهرة للعدد الماضي من الاداب (عدد يوليو ١٩٧٤) عن « البحث عن حقيقة التاريخ العربي والفلسفة العلمية »، لم تكن الفرصة قد اتيحت لي بعد للاطلاع على العدد الاول من مجلة « قضايا عربية » وبالذات لقراءة مقال الاستاذ محمد عمارة عن « الوعي بالتاريخ والمستقبل العربي » في ذلك العدد (١) ، ولا على كتاب « قضايا في التاريخ الاسلامي ، منهج وتطبيق » للدكتور محمود اسماعيل (٢) .

في رسالتنا المذكورة ، كانت القضية التي اردنا اثارتها ، من خلال التعليق على ما اسميناه « الهوجة » البذيئة وغير الموضوعية في مجلة « الثقافة » وجريدة « الاخبار » القاهريتين ضد كتب « المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية » لمحمد عمارة « اليمين واليسار في الاسلام » لاحمد عباس صالح ، « الحركات السرية في الاسلام » لمحمود اسماعيل ، كانت قضيتنا الاساسية هي ان هؤلاء المؤلفين ، على اختلاف موضوعاتهم ، ووحدة المنهج المادي التاريخي التي تجمع بينهم (بدرجات متفاوتة من شمول النظرة والحرص العلمي في التعامل مع المادة التاريخية وعمق تطبيق المنهج نفسه) تهددهم مشكلة غريبة ، تكاد ان تكون من المشاكل الخاصة التي يتميز بها التاريخ العربي ، والتي لا بد ان يواجهها مؤرخ الحضارة الاسلامية والعربية ، قبل الاسلام او بعده : مشكلة الحصول على « الحقائق » التاريخية ، وتحديد « ماهية » الحقائق وسياقاتها ومواضعها من البنيان الاجتماعي والثقافي الذي افرزها ، قبل الدخول في عملية تفسيرها . وقلت ان معرفة « حقائق » التاريخ في البداية ، اكثر فائدة بكثير من اعادة تفسير خليط الحقائق والاوهام على ضوء الفلسفة العلمية . واضفت : « ففي هذا التفسير يسهل ان تسقط الفلسفة العلمية في نفس الشراك التي دفع فيها طه حسين (اشارة الى اكتفائه بالتحليل العقلي والتشكيك المنطقي في ما تواتر من عصرنا قبل الاسلام من الشعر ، في كتاب « في الشعر الجاهلي » دون اقامته منهجه على الحقائق التاريخية والتحليل الفلسفي العلمي لها) ... ذلك ان معرفة حقائق التاريخ ، ومعرفة حقائق اية ظاهرة في كون المادة والحركة هذا ، هي المقدمة المنطقية الضرورية ، والتي لا غنى عنها لبناء فلسفة علمية مرتبطة بواقع هذه الحقائق وحركتها ...» ولم اكن اشعر بالطبع ، ان هذه الكلمات ، كادت تكون موقفا مناقضا لما قاله الزميلان ، محمد عمارة ومحمود اسماعيل ، في مقال الكاتب الاول ، وفي مقدمة كتاب المؤلف الثاني .

يتخذ محمد عمارة الموقف المتطرف ، او موقف الطرف المقابل بشكل كامل في تأكيده على ان المسألة الاساسية في عملية اعادة « كتابة » التاريخ العربي ، القومي منه والوطني ، هي مسألة « المنهج » . يقول :

« ذلك ان القضية ليست مجرد اعادة صياغة احداث التاريخ ووقائعه وتبويبها بأسلوب عصري وفي اطار حديث ، وعلى ورق ابيض، بدلا من الاصفر !! ولا هي مجرد تخليص كتب الاقدمين من «العنعنات» التي كانت طابعا لتدوين عصرهم ، ولا هي حتى مجرد « تحقيق الروايات المتعارضة والمتفاوتة والمختلفة حول الحدث الواحد ، ولا هي مجرد اعادة التجميع والتركيب لركام الاحداث التاريخية كي تتحول الى كيان حي مؤتلف ومقبول من انسان القرن العشرين ... ليست القضية شيئا من ذلك ، ولا هي كل ذلك .. وانما هي بالدرجة الاولى قضية المنهج ... بأي منهج نريد نحن ان نعيد النظر ونقرأ من جديد صفحات التاريخ ؟.. لانه سيترتب على قضية المنهج هذه « مدى » الاستفادة والفعل الذي يستطيع تاريخنا ان يقدمه لحاضرنا ومستقبلنا وايضا « نوعية » الافادة والفعل التي سيقدمها هذا التاريخ ..» (٣)

اما الدكتور محمود اسماعيل ، فيبدو من كلماته طابع المؤرخ « المحترف » ، الذي تواجهه بالفعل مشكلة ضياع الجانب الاعظم من وثائق التاريخ العربي والاسلامي وسجلاته الاصلية (المعاهدات والمواثيق وعقود البيع والشراء والزواج والمقايضة والمعاملات المالية والمراسلات الشخصية والاعترافات .. الخ) بالاضافة الى انعدام النقوش ذات الطابع التسجيلي الشخصي ، او غير الشخصي ، بالاضافة الى ما طرأ على « صورة الحقيقة » في كتب المؤرخين من تبديل وتحريف وتهويل ووقوع في قبضة الاساطير والميل الى خلط الحقائق بالخرافات واخضاع الحقائق للاهواء والميول المذهبية بل والعداوات او الصداقات الشخصية .. الخ .. الخ . وتبدو على كلمات محمود اسماعيل من جانب اخر ، الرغبة في تحقيق قدر اكبر من الشمولية للمنهج العلمي ، تجعله وان وقف على اساس من التفسير الطبقي للحركة التاريخية ، فانه لا يهمل الدوافع المحركة الاخرى للظاهرة التاريخية ككل ، خاصة في عصور كانت الدوافع الايديولوجية والدينية فيها ذات تأثير لا يقاوم . ولذلك فان محمود اسماعيل ، يطرح مسألته باعتبارها مسألة « انشاء علم للتاريخ الاسلامي » تقريبا ، رغم انه يسميها « قضية التفسير » . يقول :

« ... وهذا يقودنا الى مساواة منهجية اخرى وهي قضية التفسير . فالواقع ان التاريخ الاسلامي بصورته التقليدية والانية (يقصد الحالية) مجرد عرض وسرد للاحداث والوقائع ، وتبدو الظواهر التاريخية كما لو كانت خلقت عن فراغ ، ولذا يجب الاهتمام بالبحث في الاسباب والعلل الكامنة وراء هذه الظواهر ومعرفة قوانين نشوئها وتطورها ، والوصول في النهاية الى رؤية شاملة للمسار العام لحركة التاريخ الاسلامي ، وهذا لن يتسنى الا بعد

---

(١) قضايا عربية ، العدد الاول ، نيسان ١٩٧٤ ، ص ٩٥ - ١٠٥ .

(٢) دار العودة ومكتبة مدبولي ،بيروت والقاهرة ، ١٩٧٤ .

(٣) قضايا عربية ، محمد عمارة ، الوعي بالتاريخ والمستقبل العربي ، ص ٩٩ .

مرحلة التحقيق والرصد الصحيح للوقائع والاحداث .. » (٤)

اما عند محمد عمارة ، فاننا لا نواجه مسالة انشاء هذا العلم للتاريخ الاسلامي ، وهو العلم الذي لم يكد ينشأ حقا حتى الان باستثناء عدد محدود للغاية من الاعمال القيمة ، وانما نواجه محاولة صريحة لوضع التاريخ في خدمة وجهة نظر سياسية محددة ، تقدمية وثورية ، نعم ، ولكنها في النهاية ـ فيما نزعم ـ لن تؤدي حقا الى تحقيق « الاستفادة والفعل » من عملية اعادة القراءة والنظر الجديد في صفحات التاريخ اذا ما وضعت كشرط مسبق لهذه العملية . فمحمد عمارة يرى ان المستغلين من هذه الامة يريدوننا ان نقرأ تاريخنا بحيث يرسخ في وعينا ان الكادحين لا يرسمون مسار الحاضر والمستقبل ، وشاهدهم على ذلك التاريخ نفسه ، فقد كتب التاريخ بحيث يثبت ان الكادحين لم يلعبوا هذا الدور في يوم من الايام .. « ولذلك فهم (اي المستغلون) يرفعون شعاراتهم التي تقول ان التاريخ لا يحسم صراعه ولا يحدد مساره العوامل المادية والصراعات الطبقيةوالاجتماعية والظروف الاقتصادية » وانما هي ثمرات لمعجزات الابطال او الافذاذ الذين لا صلة تربطهم بالقاعدة المادية والاجتماعية لمجتمعاتهم .. « وهم ايضا يسعون الى تقليص الحجم والفعالية لعملية «الوعي» لدى عامة الشعب ومثقفيه ، ومن ثم فانهم حريصون على استبعاد المنهج الذي يتناول الاشياء والظواهر ـ وكذلك التاريخ ـ في ترابطها ونموها وحركتها ... » .(٥)

والمشكلة التي يطرحها الزميلان ، تتخذ وجوها متعددة :

عند محمود اسماعيل ، لن تتبين ماهية « المنهج » الذي يقصده، حتى تغوص في كتابه ، وحتى تصل بالذات الى دراسته الممتازة عن « تراجيديا التحكيم وموقف الخوارج » حيث تمكن الكاتب من تحقيق شمولية منهجه ، لا لقصد الشمولية في حد ذاته ، وانما لما تتيقن منه، من خلال « المعلومات » او « كمية المعرفة » المحققة المقارنة المنقودة المستخلصة من « ركام الاحداث » ، من ان تفسير هذه الحقائق على هذا النحو وحده هو الذي يعطيها معناها الحقيقي ، وان اغفال العنصر القبلي ، او العنصر الديني ، او العنصر الاقتصادي الخالص ، او العنصر الفردي في بعض الاحيان ، ما كان يمكن ان يؤدي الى فهم متكامل للظاهرة ولا للحادثة ولا لسلسلة الظواهر والاحداث التي سبقتها والتي تبعتها من بعد .

قد يكون هذا الوضوح في « التطبيق » راجعا الى ما يتمتع به محمود اسماعيل من طابع « المؤرخ المحترف » ، الباحث اساسا عن « الحقائق » لكي يعرف « الحقيقة » اكثر من السياسي الذي يريد ان يثبت وجهة نظر خاصة معينة ، مهما كان من تقدميتها وثوريتها فليس من حق « الباحث عن الحقيقة » ان يفترض مسبقا ان وجهة نظره وحدها هي وجهة النظر الوحيدة التي تساهم في فهم الحاضر ، بصرف النظر عن فهم التاريخ .

ببساطة نحن نعتقد ان التاريخ الاسلامي والعربي ما زال بحاجة الى ان ينشأ له « علم » خاص به . ونعتقد ببساطة اكثر ، ان انشاء هذا « العلم » يحتاج الى « جلة العلماء » الذين سخر منهم ، او من فكرة الاستعانة بهم لاعادة كتابة تاريخنا الاسلامي ، الاستاذ محمد عمارة ، (٦) اي انه يحتاج الى « علماء » ، باحثين اساسا عن الحقيقة التاريخية ، مدربين جيدا على البحث عنها واستخلاصها ، ومن المؤكد ان هؤلاء سيكونون بالضرورة موضوعيين ، على قدر او اخر من المنهجية العلمية الموضوعية ، بصرف النظر عن ماديتهم او اقتناعهم بالمادية التاريخية . هذا لاننا نعرف ان « المتسلحين بالمادية التاريخية » لقادرين في نفس الوقت على انشاء علم للتاريخ الاسلامي لا يتجاوز عددهم اصابع اليدين في مصر (واخشى ان اقول في الوطن العربي كله) ولنضرب لذلك مثلا ، وليكن مثلنا الاول هو الاستاذ محمد عمارة نفسه .

في ذات المقال القيم من مجلة « قضايا عربية » ، يقع الاستاذ عمارة في ورطتين ، الاولى ذات طابع سياسي كان ينبغي ان يتعالى عليها ،وان يعامل ما دفعه اليها (او من دفعه اليها) بما يستحقه من لا مبالاة او تجاهل . واقصد بذلك ، رغبة الاستاذ عمارة في اثبات ان المؤرخين العرب والمسلمين ، قد عرفوا اهمية العوامل الاقتصادية في تفسير التاريخ . والمفهوم ان الاستاذ عمارة يرد بذلك في طيبة حقيقية على تلك البذاءات التي اشرنا اليها والتي نشرت في مجلة الثقافة القاهرية ، والتي تتحدث عن « مركسة » التاريخ الاسلامي .. الخ ... ولكن المشكلة من الناحية الفلسفية اولا ، هي ان الاسكافي ، ابو جعفر محمد بن عبدالله ، الذي استند اليه الاستاذ عمارة ، باعتباره صاحب « التحليل الاقتصادي » للصراع بين علي ابن ابي طالب والصحابة من وجهاء قريش وبني امية وبني مروان، اقول ان الاسكافي ، الامام المعتزلي على قول الاستاذ عمارة ، لا يمكن ان يكون من المؤمنين بالمنهج الاجتماعي لتفسير التاريخ . ربما قال الرجل هذا التحليل (وانا اظن انه لم يقله) ، وليس في هذا ما يدل على انه كان .. « هذا التحليل انما يمثل رؤية تاريخية ومنهجا في كتابة التاريخ يعد بمثابة الجذور الاصيلة ـ في تراثنا العربي والاسلامي ـ لما نسميه اليوم بالمدرسة الاجتماعية او العلمية او المادية في كتابة التاريخ » . (٧)

لا نظن ان الاسكافي كان صاحب رؤية تاريخية » تمثل جذورا للمادية التاريخية ، ذلك ان المادية التاريخية لها جذور من نوع مختلف يعرفها الاستاذ عمارة ، ونعرفها نحن ونؤمن بها ، واذا شاء القارىء ـ ان لم يكن يعرفها ـ بحث عنها في مظانها فهي كثيرة معروفة .

وانما نظن ان هذه الحكاية قد نسبت الى الاسكافي ونحلت له ، من جانب ابن ابي الحديد ، صاحب « شرح نهج البلاغة » ، الذي لم ترد هذه الحكاية منسوبة الى الاسكافي الا عنده ، والمعروف ان ابن ابي الحديد كان شيعيا متعصبا ، وكان يشرح كتاب « نهج البلاغة » المنسوب الى علي بن ابي طالب ، بينما يجمع جمهرة المحققين والدارسين ، المسلمين وغيرهم ، على ان هذا الكتاب ما كان يمكن ان يمليه او ان يؤلفه ابن ابي طالب (والارجح ان مؤلفه هو الشريف الرضي ، الامام الشيعي في بداية العصر العباسي الثاني ، والشاعر العظيم والمثقف العارف باليونانية والفارسية) لان « نهج البلاغة » يضم الكثير من الافكار الفلسفية ، والتصورات ، ويستخدم تراكيب لغوية لم يعرفها العقل العربي الا بعد انهيار الدولة الاموية وانتشار الترجمة واتصال العقلية العربية بالثقافتين اليونانية والفارسية اتصالا وثيقا . والمرجح ان « نهج البلاغة » انما كتبه الشيعة في عصر متاخر ، بهدف اثبات عدة اشياء عن الامام الاعظم ، اهمها حسن بلائه ، وحكمته ، وشجاعته ، وفصاحته ، واحقيته بالامامة ، وعظمة قدره على الفهم ، وانه كان ضحية لمؤامرة خسيسة ، حاكها وجهاء قريش وبنو امية وبنو مروان ، او انه كان ضحية لناس بلغوا درجة

---

(٤) محمود اسماعيل ، قضايا في التاريخ الاسلامي ص ١٠ .
(٥) محمد عمارة ، الوعي بالتاريخ والمستقبل العربي ، قضايا عربية ص ٩٩ .
(٦) المصدر السابق ص ١٠٠ .
(٧) المصدر نفسه ص ١٠٢ .

كبيرة من الخسة والانانية وحب المال . وهذا ببساطة هو مغزى القصة التي يرويها ابن ابي الحديد ، والذي ينسبها الى ابي جعفر محمد ابن عبدالله الاسكافي ، لكي يجعل الامام المعتزلي شاهدا على خسة خصوم علي ولؤمهم واشتهائهم الدنيا والمال والمناصب . وفي النص الذي اورده ابن ابي الحديد ما يوحي بتزييفه . فليس من المعقول ان يقول علي عن عثمان في اول خطبة له بعد ولايته : « فعمل ما انكرتم وعرفتم ، ثم حصر وقتل ، ثم جئتموني طائعين ... » فكأنما يعلن على الملأ شماتته في الخليفة المقتول ، ورضاه عن قتله وعن من قتله واعتباره قتله قصاصا له جزاء لما « انكرتم وعرفتم » .. وليس من المعقول ان يقول بعض الناس عن معاوية انه « عدو » علي في اليوم التالي او الثالث لبيعة علي في المدينة ، ذلك ان هذه العداوة لم تعلن الا بعد رفض معاوية مبايعة علي الا اذا اسلمه قتلة عثمان او اقام عليهم الحد ... وقد نكون ـ على العموم ـ على خطأ . فلست بالمؤرخ المحترف . وانما اردت ان اقول ان « تحقيق » الوثائق ، ومقارنة بعضها بالبعض ، بهدف الوصول الى « حقيقة » ثابتة ، لن تمدنا فقط بالحقيقة ، وانما سنمدنا اساسا بسند حقيقي لاقامة التفسير العلمي للتاريخ ، الذي يجعلنا نكتشف ان التاريخ من صنع البشر الخاضعين بدرجة ما لقانون خارج عن ارادتهم ، والقادرين بدرجة اخرى على اخضاع هذا القانون ذاته لارادتهم نفسها بأن « يعرفوا » الحقائق ، والقانون ، واسلوب التحكم فيه جميعا . واردت ان اقول ان الشروع في اعادة كتابة التاريخ الاسلامي ، لا بهدف « اقامة علم » لهذا التاريخ ، وانما بهدف « اثبات » ان الكادحين هم الذين حركوه، وان بعض الفقهاء او المؤرخين غير العلميين في نظرتهم العامة للتاريخ قد فسروا بعض الاحداث على ضوء العوامل الاقتصادية ، فانما سنعرض انفسنا للوقوع في نفس اخطاء تلك الفرق التي لوى مؤرخوها وفقهاؤها اعناق التاريخ لكي ينطقوه بما لم يكن بوسعه ان يهمس به ، ولاجباره على الافصاح عن نظراتهم او اهوائهم هم . وقد كان لهؤلاء الفقهاء عذرهم ، ذلك انهم لم يكونوا واثقين من ان « الحقيقة » يمكن ان تقف في صفهم . اما نحن فنعرف مثلما قال لينين ان الحقيقة يسارية وعلمية . وان العثور عليها ، وتسليط الضوء على قسماتها وعلى ما يربطها بالحقائق الاخرى ، هو في حد ذاته اقامة العلم ، وهدم الخرافة ، وانتصار المنهج العلمي . علينا ان نثق بان الحقيقة بالفعل تقف في صفنا ، واننا دون ان « نعرفها » فلن نستطيع ان نقيم فلسفة علمية ، ودون ان ننشرها بين الناس ، فلن يؤمن بالفلسفة العلمية أحد ، ولا بتحليلاتها مهما كانت صائبة . فالوعي ، كما نعرف من تاريخ العلم والفلسفة ، وكما تعلمنا نظرية المعرفة العلمية ،مرتبة تالية للمعرفة ومترتبة عليها ، لا على غيرها .

يسلمنا هذا الى النقطة التالية التي تتضح اكثر لدى الدكتور محمود اسماعيل . يتفق مؤلف « الحركات السرية في الاسلام » و « قضايا في التاريخ الاسلامي » مع مؤلف « مشكلة الحرية الانسانية » في حرصه على البحث عن سند من مفكري الاسلام الاوائل او مؤرخيه ، يستند اليه لتبرير استخدام المنهج العلمي في تفسير التاريخ . وبينما نعتقد نحن ان العمل الدائب على اكتشاف «الحقيقة» التاريخية ، وتفسيرها باعتبارها ظاهرة موضوعية تفسيرا لا علاقة له باية عقيدة او تصورات مسبقة ، هو المقدمة الضرورية والمنطقية لاقامة العلاقة المحتملة بين الفلسفة العلمية وبين تراث الامة وعقلها) بينما نعتقد نحن ذلك (٨) يقرر الزميلان ان « القضية هي المنهج » « بالدرجة الاولى » بتعبير محمد عمارة ، و « يخيل الي ان ازمة الفكر العربي المعاصر هي بالدرجة الاولى ازمة منهج . » بتعبير محمود اسماعيل في السطر الاول من مقدمة كتابه « قضايا في التاريخ الاسلامي » .

وكما قلت من قبل ، ان طابع المؤرخ المحترف عند محمود اسماعيل ، الذي يواجه في بحثه ـ ويعترف بوضوح انه يواجه مشكلة ندرة « السجلات والوثائق » التاريخية الاصلية (ولذلك فانه يسعى الى التثبت من صحة ما قد يرد في كتب التاريخ واللغة والطبقات الى نقدها ومقارنتها بالروايات الاخرى وكشف ملابسات وضع الرواية التي بين يديه ـ فلا يعتمد مثلا على ما ورد في نهج البلاغة او في شرحه لكي يثبت ما سعى المؤلف الشيعي الى اثباته كما فعل محمد عمارة : « على المؤرخ المحترف هنا ـ العلمي والموضوعي .. ان يشك على الاقل في احتمال صحة هذه الرواية) ـ اقول ان محمود اسماعيل بطابع المؤرخ المحترف ، ممتزجا بطابع المؤرخ الملتزم بالرؤية العلمية للتاريخ ، يعود فيقول بعد ذلك السطر الاول مباشرة، مكملا عبارته الاول تلك على الفور ، يقول : « ولا سبيل لنقلة في هذا الفكر دون الاخذ بالمنهج العلمي الذي هو محصلة خبرات وممارسات طويلة في طرائق التفكير واساليب البحث من اجل الوصول الى الحقيقة ، حقيقة تفسير ماهية الانسان وظواهر الطبيعة » .. وبصرف النظر عن ركاكة التعبير ، فهو يريد في العبارة الاخيرة ان يقول : الحقيقة التي تفسر ماهية .. الخ ، بصرف النظر عن هذه الركاكة ، فان محمود اسماعيل ، في تصويره للحل الناجع لازمة المنهج ، التي هي « ازمة الفكر العربي المعاصر » ، وفي قوله ان « المنهج العلمي .. هو محصلة خبرات وممارسات طويلة في طرائق التفكير واساليب البحث » انما يقيم المنهج العلمي في الحقيقة على قدم واحدة ، وهي القدم الثانية ، التالية في تسلسل نشوء المنهج العلمي نفسه . القدم الاولى هي « المعلومات » . دون تكاثر المعلومات الى الحد الذي يصبح تصنيفها امرا ضروريا من اجل استخدامها بطريقة منظمة و « ايديولوجية» ، اي طبقا لتصور معين ، ما كان من الممكن اصلا ان ينشأ « علم » وبالتالي ما كان من الممكن ان ينشأ منهج علمي . وكان محمود اسماعيل على حق في قوله ان المنهج العلمي طبق اولا على العلوم الطبيعية . ولكن هذا كان جديرا بان يذكره بان اول اصحاب « المناهج الفكرية العلمية في التفكير والبحث » كانوا انفسهم من العلماء : جيوردانو برونو وكوبرنيكوس وجاليلي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر (يضاف اليهم عادة العالمان الرياضيان باراسيلوس وتيليزيو) ، ثم فرانسيس بيكون بين القرنين السادس عشر والسابع عشر . وان كمية « المعلومات » التي توافرت من خلال الجهد الدؤوب لمئات العلماء والرحالة والبحارة وغيرهم ، هي التي هيأت الفرصة في النهاية لبدء صياغة « المنهج المادي العلمي »على يدي توماس هوبز الذي صاغ نظريات بيكون ودمجها مع افكار جاليلي وبرونو وتيليز فيما اصبح يعرف من بعد بالنزعة المادية الميكانيكية . المهم هنا هو ان « المعلومات » تلك التي يشكو محمود اسماعيل من عدم توافرها ، والتي يجتهد في انتاجه العلمي من اجل جمعها ونقدها وتصفيتها من التزييف بعد البحث عنها في

---

(٨) والجهد العملي الذي يبذله الزميلان محمد عمارة ومحمود اسماعيل بالذات يؤكد لنا صدق ما نعتقده وصوابه . راجع مثلا تحقيقات عمارة للاعمال الكاملة للافغاني ومحمد عبدة ورفاعة الطهطاوي، وراجع كتابي محمود اسماعيل المذكورين سابقا : الحركات السرية في الاسلام ، قضايا في التاريخ الاسلامي : ان الكشف عن «الحقيقة» الفعلية ، هو العمل الاساسي الجاد والمثمر للمؤرخ العلمي ، وهو اللبنة الاولى التي عليها يقيم تفسيره العلمي للتاريخ . ولكن ما هي « الحقيقة ؟ » .

مظانها الحقيقية ، (والتي نرجو الا تكون شكواه تلك مجرد شكوى مؤرخ محترف ، وانما شكوى عارف باهمية « المعلومات » الحقيقية للباحث عن الحقيقة) ، اقول ان المهم هنا هو ان « المعلومات » هي المنطلق الضروري الاول لنشأة العلم والمنهج العلمي في وقت واحد .

اما « الخبرات والممارسات الطويلة في طرائق التفكير واساليب البحث » فهي النتيجة او المحصلة النهائية لقدرة العالم على الاعتراف بالحقيقة ، او بان « كل » ما تضمنه الواقع انما هو جزء من تاريخه، وان المشكلة هي « تفسير » احتواء الواقع لكل تلك الظواهر او جزئيات الظواهر . ببساطة اقول ، طالما نحن نتحدث عن« اعادة قراءة التاريخ الاسلامي » ، ان المؤرخ العلمي حقا ، والذي يجمع كل ما يمكن جمعه من « معلومات » عن هذا التاريخ ، لا بد ان ينطلق من ان « كل » ما احتواه هذا التاريخ كان اجزاء حقيقية من التاريخ نفسه ، وان المشكلة هي « تفسير » وجود كل هذه الاجزاء ، سواء كانت حقائق فعلية حدثت في عالم الحركة والمادة الخارجي ، ام كانت « اوهاما » واساطير وخرافات ، سطرها المؤرخون باعتبارها الحقائق ، او زيفوها لكي يعطوا للحقائق الفعلية معاني ايديولوجية محددة . لقد نسب ابن ابي الحديد للاسكافي ما نسبه في « شرح نهج البلاغة » . قد نصل الى استنتاج نؤمن بصحته يقول : ان الاسكافي لم يقل حقا ما نسب اليه . بذلك يفقد ما اورده ابن ابي الحديد نصف صدقه . ولكن من الثابت ان ابن ابي الحديد « قد اورده » فالمشكلة اذن هي البحث عن سبب هذا التزييف ، وكيفية صنعه ، والملابسات التي احاطت بعملية التزييف هذه ومشابهاتها مما صنعه الشيعة او السنة او المعتزلة او « المؤرخة للملوك » او الخوارج.. الخ .. الخ . يقول الطبري ان فرعون موسى اسمه «الوليد بن الريان» وان « البرابي » التي في « بر الجيزة » كانت لتمجيد آلهة مصر في ذلك الزمان ، وان اول من سكن مصر هو مصرايم بن يافث بن نوح (ونقل عنه كل هذا الهراء مؤرخون اخرون ، على رأسهم المسعودي والمقريزي)(٩) ، وانا لا اعرف على وجه اليقين من اين جاء الطبري بهرائه هذا ، ولكن لا شك في ان هذا الكلام هراء لا يمت الى حقيقة تاريخ مصر وآثارها وسكانها باي صلة ، ولا شك ايضا في ان الطبري والمسعودي والمقريزي قد قالوه . وفي ظني ان مسالة البرهنة على ان هذا الكلام هراء ، ايسر بكثير ، بكثير جدا واقل اهمية ، من مسالة البحث عن « مصدر » هذا الكلام ، والسبب في ان مؤرخا من كبار مفسري القرآن ايضا ومن كبار رواة الحديث قد استسلم لهذا الهراء ورده على انه « الحقيقة » . ولنذكر ان علمي التفسير والحديث يكادان ان يكونا من اكثر العلوم الاسلامية اقترابا في روحها ومناهجها من روح العلم التجريبي والعقلي الحديث ومناهجه، وانهما يكادان ان يكونا علمين عربيين خالصين في مناهجهما ووسائل بحثهما . فلماذا كان الطبري « علميا » تقريبا في بعض ميادين عمله ، ولم يكن كذلك في ميدان اخر او في جزء من هذا الميدان ؟ في اعتقادي ان « تفسير » هذه الظاهرة بالاجابة على مثل تلك الاسئلة هي المهمة الاولى الحقيقية للمؤرخ العلمي الذي يريد ان يعيد قراءة تاريخنا الاسلامي . هناك مثلا التساؤل عن الاصل الحقيقي لفكرة « دين ابراهيم الحنيف » . التوراة صريحة في نسبة ابراهيم الى اليهودية باعتباره عبرانيا . فمن اين جاءت فكرة « الحنفية » او الدين الحنيف ؟

لقد قرر القرآن نفسه هذه « الحقيقة » ، ولكننا نريد ان نعرف اصلها فحسب ، ففي معرفتها ، ومعرفة اشياء اخرى كثيرة مشابهة يمكن ان نتبين الكثير من الحقائق وان تحسم الكثير من المشاكل المتعلقة بقدسية الثقافة العربية او عدم قدسيتها : انها ثقافة علوية ، متنزلة لم يخلقها البشر وان آمنوا بها ، ام انها ثقافة انسانية تاريخية ، تنتمي الى سلسلة بعينها من الحضارات التي تكون مجموعة حضارية واحدة ..؟ والمشكلة هنا في الحقيقة لا تتعلق بتاكيد ان « الكادحين » هم الذين شيدوا لله بيتا في مكة، او ان ابا الانبياء وولده هما اللذان شيداه .. المشكلة هي ان «نعرف» الحقيقة . والحقيقة في النهاية بالتاكيد علمية . تقول كتب التاريخ العربي القديمة ، وكتب انساب العرب ، انه قد سكنت مكة قبل قريش جرهم ، وانه سكنتها قبل جرهم العماليق . فمن هي جرهم ومن هم العماليق ؟ اوجدوا حقا ، ومن اين جاؤوا وماذا كانت لغتهم وديانتهم وآدابهم ونظمهم الاجتماعية واعمالهم ، ام انهم احاديث خرافة نسجها الرواة واصلحوها وافتعلوا بها للامة تاريخا « غير تاريخها الحقيقي » ؟

يستند الرواة ـ ويتبعهم المؤرخون (١٠) في مثل هذا الحديث على « علم الانساب » العربي . فاذا ذكرنا ما كان للصراعات القبلية من تاثير مروع على التاريخ العربي (ولعل من انصع نتائج دراسة محمود اسماعيل عن « تراجيديا التحكيم » ، ترجيح خيانة الاشعث بن قيس الكندي اليمنى لعلي ، واشارته « اللطيفة » على استحياء الى افتراء الرواية العراقية في هذا الصدد ، مما يوحي برغبة مؤرخي العراق في تبرئة الاشعث الذي كان قائدا للقيسية اليمنيين المقيمين في العراق من اتباع علي، وهم غالبية اتباعه في صفين) فان تصفية علم الانساب هذا ، وكشف ما علق به من زيف ، وتحديد الاصول الاشنوجرافية الحقيقية للقبائل العربية ، قد يكون ذا فائدة لا تقدر في كشف تكويناتها الانثروبولوجية ومساراتها السياسية على ضوء تلك الاصول وهذه التكوينات (ففي هذه المراحل « القبلية من التاريخ ، لا تنفصل الحقائق والدوافع الاقتصادية انفصالا كبيرا عن الجوانب الاخرى من الحقيقة الاجتماعية : وليقرأ من يشاء ـ او ليعد قراءة انجلز في اصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة ، اذا كان ممن يفضلون الكلاسيكيات على منجزات علم التاريخ والاجتماع العلمي الحديثة).

مرة اخرى ازعم انه ليس من السليم ـ علميا ولا سياسيا ـ ان نستسلم لبذاءات صبيان الجهل والخرافة والتعصب الاعمى والاعتماد على نقل العنعنة ، فنذهب لكي نلتمس لانفسنا في التراث مبررا لعلميتنا : علميتنا تثبت بان ننظر الى التراث نظرة علمية . وذلك ـ في تصوري ـ يكون بان نقوم نحن بتجميع المعلومات ، وباكتساب القدرة على تقبل « التراث » كله باعتباره حقيقة واقعة ، تتطلب ان تعرف ، ثم تتطلب ان تفسر على ضوء موقف نقدي موضوعي وعقلي صارم ، بصرف النظر عن احتياجات الموقف السياسي او النظرة الايديولوجية . هكذا تستطيع الفلسفة العلمية ان تصبح هي الاخرى جزءا حقيقيا من التراث نفسه ،وتصبح ـ اكثر من ذلك ـ تاجه ونوره وعينه المبصرة .

القاهرة

---

(٩) راجع الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، المجلد الاول ، الجزء الاول ص ٤٦ وما بعدها ، طبعة المطبعة الحسينية بالقاهرة ، دون تاريخ . ـ وراجع ، المسعودي ، مروج الذهب ص ٢٦٢ و ٢٦٤ طبعة دار التحرير ، وراجع : خطط المقريزي ، ج ١ ، ص١٧، ص٣٠، طبعة التحرير نقلا لطبعة بولاق ، القاهرة .

(١٠) راجع مثلا المسعودي ، المصدر السابق ، ص ٣١ .